﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فهو المهتد، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أنَّ سيّدنا محمَّداً عبده ورسوله، وصفيه وخليله، خيرُ نبي اجتباه، هدىً ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدّين كلِّه ولو كره الكافرون، ولو كره المشركون، ولو كره من كره، اللَّهم صلِّ على سيّدنا محمَّد وعلى أله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد:

عباد الله، أوصيكم ونفسيَ بتقوى الله تعالى، وأحثكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير:

يقول الله تعالى: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ * فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [النَّمل:50-52].

وقال الله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ * أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ * أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف:97-99].

أيُّها الإخوة:

في القرآن قوانين ونواميس تحكم الكون كلَّه، لا تتَبدَّل ولا تتغير، ولا تُحابي ولا تُماري، مَنْ فعَل أسبابها نالَ نتائجها...

وإذا قرأنا قوانين القرآن وفهمناها وعَمِلنا بها نجونا وسَلمنا في الدُّنيا وفي الآخرة، أفراداً وأسراً وجماعاتٍ، وإنْ خالفنا هذه القوانين نالَتنا نتائجها.

ولئن حدثتكم في الأسبوع الماضي عن (قوانين القرآن في الظُّلم والظَّالمين) فخطبة اليوم عن قانون قرآني عنوانه: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾.

المكر: هو صرف الغير عما يقصده بحيلة, والمكر نوعان: مكر محمود ومكر مذموم، فالمكر المحمود: هو ما يتحرى به فعل جميل، والمكر المذموم: هو ما يتحرى به فعل قبيح.

فمن الأوَّل قوله تعالى: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [آل عمران:54] ومن الثَّاني قوله تعالى: ﴿إِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ [الأنفال:30].

والإسلام –أيُّها الإخوة– دعا المسلم أن يكون ذكياً لبيباً حاذقاً داهيةً، على أن يستخدم هذا الذَّكاء وهذا الحذق وهذا الدَّهاء في فعل الخيرات وفي دفع المنكرات، أمَّا إذا استخدم هذه النِّعم في الشُّرور والآثام فقد حوَّل النِّعمة إلى نقمة.

كما دعا الإسلام المسلم أن يكون غنياً ثريَّاً لكن على أن يستخدم نعمة الثَّراء والغنى في فعل الخيرات ودفع المنكرات، فإذا استخدم نعمة المال في الشُّرور والآثام أو جمَعها من شبهات وحرام فقد حوَّل النِّعمة إلى نقمة.

فمن استخدم نعمة الذَّكاء في إيصال الخير لنفسه ولمن حوله وفي دفع الشَّر عنهم فقد سَعِد وأَسعَد، ومن استخدم ذكاءه ورجاحة عقله وفطنته في الشُّرور فإن شروره وآثامه وذكاءه الماكر الخداع سينقلب عليه؛ لأنَّ قانون القرآن يقول: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر:43].

وهذه سنة إلهية مضطردة لذلك أتبعها الله تعالى بقوله: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر:43].

ومعنى يحيق: أي يحيط إحاطة تمنع الهروب، يعني هذا المكر سيحيط به إحاطة كاملة لا يستطيع بكلِّ ذكائه أن يفرَّ منها.

وفي الآثار: ثلاث مَن فعَلهن لن ينجو حتَّى تنزل به, مَن مَكَر أو بغى أو نكَث، اقرؤوا إن شئتم ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ [يونس:23]، ﴿فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ [الفتح:10].

وقال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: ((الْمَكْرُ وَالْخَدِيعَةُ فِي النَّارِ))[1].

وقال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: ((لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ خَبٌّ وَلَا مَنَّانٌ وَلَا بَخِيلٌ))[2]، الخب: هو المخادع يقال بفتح الخاء وبكسرها.

وقال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم في وصف الفاجر: ((الْفَاجِرُ خِبٌّ لَئِيمٌ))[3]، أي: خداع.

وقال تعالى في وصف المنافقين: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ [النِّساء: 142]

وقال النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم: ((مَلْعُونٌ مَنْ ضَارَّ مُؤْمِنًا أَوْ مَكَرَ بِهِ))[4]، يعني: مَن مَكَرَ مكراً سيئاً بمؤمن ملعون على لسان سيِّدنا محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّم.

ولعل قائلاً يقول: كثيراً ما نرى الماكر يمكُر ويفيده مَكرُه ويغلبُ خصمَه بالمكر السَّيِّئ، فكيف يقول القانون: إنَّ المكر السَّيِّئ لا يحيق إلا بأهله؟

والجواب: إنَّ الأمور بعواقبها، ومَن مكر به غيره ونفذ فيه المكر عاجلاً في الظَّاهر ففي الحقيقة والعاقبة أن الماكر هو الهالك، والأمور بخواتيمها.

وإليكم هذه الوقائع الدَّالة على أنَّ المكر يحيق بأهله في عاقبة الأمر وحقيقته.

- **الواقعة الأولى: نبيُّ الله يوسف عليه السَّلام:**

كما تعلمون مَكر به إخوته ظلماً وحسداً في أوَّل القصة، ونفذ مكرهم به في الظَّاهر، لقد ألقوه في غيابة الجبِّ، وجاؤوا أباه بقميصه وعليه بدم كذب، ومضى أمرهم حسب ما خططوا، لكن العاقبة كانت أن مكرهم أحاط بهم وحاق، ونجا يوسف وأخذَتهم السّنون والقحط ودارت الأيام وصار يوسف الممكور به خازناً عند عزيز مصر وجاؤوا هم أنفسهم الذين مكروا به قبل أربعين سنة جاءوا إليه يطلبون مساعدته وهم لا يشعرون أنه أخوهم، ومن العجب أن اليد التي امتدَّت إلى يوسف لدفعه إلى البئر هي نفسها اليد التي امتدت له وطلبت منه الصدقة.

---

[1]() أخرجه البيهقي في"شعب الإيمان" [7/208].

[2]() أخرجه التِّرمذي في "جامعه" [4/343]، وأحمد في"مسنده" [1/209].

[3]() أخرجه أبو داود في "سننه" [4/397]، والترمذي في "جامعه" [4/344].

[4]() أخرجه التِّرمذي في "جامعه" [4/332].

﴿يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ [يوسف: 88]، ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر:43].

-الواقعة الثانية: الوزير ابن الزَّيات:

ورد في كتاب "سير أعلام النبلاء" في ترجمة الوزير ابن الزَّيات من وفيات ثلاث وثلاثين ومائتين: (هو أَبُو جَعْفَرٍ مُحَمَّدُ بنُ عَبْدِ المَلِكِ بنِ أَبَانٍ، وزر لِلْمُعْتَصِمِ وَلِلْوَاثِقِ، وَكَان يَقُوْلُ: مَا رَحِمتُ أَحَداً قَطُّ، الرَّحْمَةُ خَوَرٌ فِي الطَّبعِ.

ودارت الأيَّام ونقم المتوَكِّلَ عليه، فَسُجِنَ فِي قَفَصٍ مُلِئت جِهَاتُه بِمَسَامِيرُ، فَكَانَ يَصِيحُ: ارْحَمُونِي. فَيَقُوْلُوْنَ: الرَّحْمَةُ خَوَرٌ فِي الطَّبِيعَةِ. ومات في سجنه.

طلب قبل موته دواة وبطاقة، فأُحْضِرَتا إليه، فكتب:

هي السَّبيل فمن يومٍ إلى يومِ كأنّه ما تُريك العينُ في النَّوم

لا تجزعنَّ، رويداً، إنَّها دولٌ دنيا تنَقَّل من قوم إلى قوم

ذكروا عن أَبي طَالِبٍ عَلِيّ بن أَحْمَدَ وَزِيْرِ السُّلْطَانِ مَحْمُوْد السَّلْجُوْقِي، أنه كان شَدِيد الوَطْأَة، ذُا عَسْفٍ وَظُلْمٍ وَسُوءِ سِيرَة، وَكَانَ يَقُوْلُ: قَدِ اسْتحييت مِنْ كَثْرَةِ الظُّلم وَالتَّعدي، أراد السفر فهيأ موكباً عظيما، لكنه مرَّ بمضيق تفرَّق فيه الموكب، فوثب عليهم أهل مظلمة فَانْهَزَم الجَمعُ وَبَقِيَ الوَزِيْر، فَكرَّ قَاتِلُه عليه وَجرَّه، وَالوَزِيْر يَسْتَعطِفُه وَيَتضرع لَهُ، فَمَا أَقلع حَتَّى قتله، قال الإمام الذَّهبي: (وكلُّ قَاتِلٍ مَقْتُول).

- الواقعة الثَّالثة:

ورد في تقرير من واشنطن عام 2008م يقول: أجريت دراسة نفسية وعصبية على عينة من المقاتلين الأمريكان في حرب العراق، العينة كانت ألفين وخمسمائة مقاتل،كانت النَّتائج: أربعون بالمائة منهم أصابتهم أمراض نفسية وعصبية، ومنهم من وصل إلى أمراض عقلية وهستيريا، وهناك محاولات انتحار، فضلاً عن الهروب من العمل: ﴿فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [الحشر:2] وحاق المكر السَّيِّئ بأهله.

أيُّها الإخوة:

هذه وقائع حياتية قليلة لها نظائر كثيرة تدلُّ على أنَّ المكر السَّيِّئ لا يحيق إلَّا بأهله، وإنَّ مَن سَبَر أخبار النَّاس وتواريخ العالم وقف على العَجَب العُجاب من هذه القصص والحوادث.

إذا علمتَ هذا فاحذر أن تمكر بأحد مكراً سيِّئاً، أو أن تؤذي إنساناً بغير حق، أو أن تكون مع أهل المكر السيئ.

وليس يحيق المكر إلَّا بأهله وحافر بئر الغدر يسقط في البئر

وكم رائشٍ سهماً ليصطاد غيره أصيب بذاك السَّهم في ثغرة النَّحر

- ختاماً: المطلوب ثلاثة أمور:

أوَّلاً: استخدم ذكاءك ودهاءك في جلب النَّفع لنفسك وللآخرين من أهل الخير، وهذا من شكر نعمة الله عليك؛ إذ أورثك الذَّكاء والفطنة.

ثانياً: إيَّاك أن تستخدم مكرك في أذيَّة الخلق من دون حقٍّ، فإنَّ المكر السَّيِّئ لا يحيق إلَّا بأهله.

ثالثاً: كُن فطناً حتَّى لا يخدعك الآخرون، فإنَّ أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: (لست بالخب، ولا يخدعني الخب) [الماوردي في أدب الدنيا والدين].

والحمد لله رب العالمين